الـكتاب ولوازمهم

للأستاذ محمد فرحات عمر

دعانى إلى كتابة هذا المقال أمران طالما أثارا من دهشتى وعجبى :

أولهما ما راعنى من التزام أكثر كتابنا بعض عبارات لا يبغون عنها حولا ، ولا يريدون بها بديلا

وثانيهما مدى دلالة هذه اللوازم على شخصيات ملتزميها ، بحيث يمكن أن تكون عنوانا لها ومرشدا عليها ، ونبراسا مضيئا يكشف لنا عن أغوارها ، وعما يختلج فى لواعجها من مشاعر وميول

وأول مايصادفنا من هؤلاء الـكتاب هو الدكتور طه حسين ؛ فمن لوازمه قوله دائما « مهما يكن من شئ » و« ما استطعت إلى ذلك سبيلا » ، هذا إلى جانب استعماله للمفعول المطلق استعمالا ظاهرا يثير الانتباه ويدعو إلى الالتفات ! وهذه اللوازم إن كانت جديرة بالاهتمام فهى من حيث أنها عنوان أمين لـكيانه النفسى ومسبار صادق لسبر أغوار هذه الميول وتعقب أسباب هـذه الأهواء التى ضربت بجذورها فى أعماق هذه النفس الـكبيرة . فبديا تعلم أن الدكتور طه قد فقد بصره إبان طفولته ، فلا غرو أن تولد عن هذا فيما أسماه آدلر Addler بمركب النقص الذى كان حافزا له على اصطناع أسلوب تعويض من شأنه أن يحقق تكامله الشخصى كفرد سوى

ويجمل بنا كى ينجلى الأمر أمام القارئ أن نأخذ فى بسط معنى « المركب » وفى التعريف بمعنى « النقص » بغاية الإيجاز ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . أما المركب فنعنى به مجموعة العواطف التى تندس فى العقل الـكامن فتوحى إلينا باتجاهات خاصة وتملى علينا سلوكا معينا قد يستعصى علينا تعليله ونحار فى فهم أسبابه فقال فرويد Freud بمركب أوديب وقال آدلر addler بمركب النقص معتمدا فى هذا على نظريته النائية فى حب السيطرة . . والذى يعنينا هو مركب النقص الذى يتولد عادة فى أيام الطفولة حين يشعر الطفل بضعفه إزاء المحيط الخارجى ، وقد يطول به الأمد إلى أيام الشباب ولـكنه لا يجنح إلى الظهور ولا يحمى وطيسه عند الفرد إلا فى حالة نقص طبيعى ظاهر والمصاب به يشعر بقصوره ، ومن ثم يدأب على أن يخلق من نقصه كمالا وذلك فى نطاق الظروف الواقية والأحوال الموائمة وعلى قدر الذكاء الموروث . وهذا السلوك التعويضى قد تترتب عليه نتائج بعيدة المدى تدعونا إلى العجب والإعجاب معا . ومن سمات المصاب به أن يكون كثير التهكم على الناس ، عابثا بهم ، ساخرا منهم . ومن شواهدى على ذلك ما نراه من برنارد شو وأبى العلاء مثلا . على أن المصاب به قد لا يجحد العبقرية كائنة ما كانت فى أى شخص ، ولا يفكر بالعظمة حتى يخر لها ساجدا ، وكأنه حين يصل القمة فى إيمانه بالغير يكون قد وصل الذروة فى إيمانه بنفسه . فلقد كان شو على تهكمه اللاذع بالناس ، وسخريته القذعة منهم ، شديد الاحترام للنبوغ ، فلقد أبدى تواضعا غير معهود فيه حين قابل غاندى وقال له أقدم لك نفسى أنا المهاتما الصغير . كذلك أبدى احتراما فائقا حين جمعته الظروف بأينشتين . وعلى هذا الحال كان أبو العلاء المعرى على عبثه بالناس معجبا بالمتنبى إلى حد التقديس !

ومن الأمارات التى تهدينا أيضا إلى التعرف على شخصية الرجل الذى تنطوى نفسه على هذا المركب تكلفه السلوك وتصنعه له تصنعا ظاهرا يدعو إلى العطف والإشفاق .

والمحلل لشخصية عميد أدبنا العربى يعرف عن كثب مقدار تغلغل هذا المركب فى نفسيته ، وإلى أى حد كان حافزا له على المثابرة والكفاح حتى تألق نجمه وأصبحت له هذه المكانة المرموقة . فالسخرية من الغير هى مسلاته . . . وعبادة العبقرية أو على الأصح عبادة نفسه بطريق غير مباشر ، أطيب الأمور إلى نفسه ، فما أظن إعجابه بأبى العلاء وإشادته بذكره وتعصبه له ، إلا إعجابا بنفسه وإشادة بذكره . وأنا أذكر على سبيل المثال هذه المناقشة التى قامت بينه وبين أحد نواب الوفد فى قاعة البرلمان والتى ختمها الدكتور طه بقوله « إن طه حسين

هو اللغة العربية »

ومن ثم فلا غرو أن كان لسان حاله يردد « مهما يكن من شيء » و « ما استطعت إلى ذلك سبيلا » ثم لا يلبث بعد ذلك إلا وإنما يستعمل الفعول المطلق استعمالا ظاهرا كأنه يرمي إلى توكيد ما رددده من قبل . فكل هذه اللوازم تدل على أنه قد طرح عن نفسه كل يأس ، وخلع عليها كل فضل فوطدها على العمل وعقد عزمه على الشد من أزرها مهما كانت الظروف والملابسات

والآن ننتقل إلى كاتب آخر هو الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد.. ولكاتبنا لوازم عديدة يعنينا منها هنا كلمة لا مراء وكلمة «مليحة» يعني أن فلانة جميلة! فبهاتين اللازمتين يمكننا أن نهتدي إلى «مفتاح» شخصية الكاتب الكبير فبدنا الأستاذ العقاد رجل عاطفي إلى أبعد ما يتصور المرء ، فإذا صادق تحمس في صداقته إلى حد أن يرفع صديقه إلى مصاف العظماء ، وإذا سخط على أحد أو غضب منه أنزله أحط مرتبة وأسفل درك . فكلنا يذكر أيام خروجه على الوفد وأي حملة حملها عليه وأي تجريح وتقريع صبها على رأس الوفد ورئيسه . هذا مثل حي من عداوته ، أما صداقته فأنا أذكر على سبيل المثال رواية طريفة : كنت يوما بمجلسه وتجاذبنا أطراف الحديث في السياسة حتى انتهى بنا المطاف إلى الكلام عن شخصية المرحوم محمود فهمي النقراشي فما كان من الأستاذ إلا أن بادرنا بقوله « إن النقراشي في رأيي لا يقل إطلاقا عن المهاتما غاندي إن لم يزد » لقد قال الأستاذ قولا عظيما لا أظن أحدا يوافقه عليه ؛ ولكن هذا هو إذا صادق فطوبى لصديقه ، كما أنه لو عادى فويل لعدوه . ومن كانت هذه حاله فهو إنما ينظر إلى قيم الأشياء بوجهة نظر ذاتية subjective لا بوجهة نظر موضوعية objective فهو يقومها بمقتضى هواه وبحسب ما يشتهي . ومن كان دأبه هذه النظرة فهو رجل شديد الإيمان بنفسه عظيم الاعتداد بشخصه ! وعلى ذلك فلا عجب أن لازمت الأستاذ العقاد كلمة مثل « لامراء » سداها الحسم ولحمتها القطع! بل العجب كل العجب ألا تلازمه مثل هذه « اللازمة »

وليس مما يشين الرجل أو يقلل من قدره أن يقال عنه إنه معتد بنفسه ، فإن هذا لعمري شيمة كل رجل عظيم لم يعرف قدره ولم يلق تكريما من أهل عصره ، بل على العكس قد يلقى حسدا وجحودا وبهتانا عظيما . فالأستاذ العقاد على الرغم من أنه أكثر كتابنا ثقافة وأوسعهم اطلاعا وأقواهم حجة وأرصنهم عقلا وأنظمهم فكرا ما زال أنصاره قلة وأعداؤه كثرة دون ما سبب سوى الهوى المغرض المستبد بنفوس الكثيرين من الناس

ثانيا : يبدو الأستاذ العقاد في كثير من الأحايين متمسكا بالتقاليد الموروثة متعصبا لها ، أو بالأحرى فيه حنين دائم إلى الماضي ، ما زالت بعض تعاليم التربية التي تلقاها في فجر حياته تتحكم في كثير من تصرفاته وفي تحديد طرائق تفكيره ، فهو مثلا لا يوافق على مساواة المرأة بالرجل على النحو الذي ينادي به كثير من أنصارها الآن ، وله أدلة على ما ذهب إليه عديدة ، بعضها فسيولوجي وبعضها سيكلوجي وبعضها الآخر سوسيولوجي.. وسواء قويت هذه الأدلة أم وهنت ، فإن هذا لا يعنينا في شيء ؛ إنما الذي يعنينا هو اتجاه الرأي في ذاته . وزد على هذا أن للأستاذ زيا تقليديا خاصا لا يكاد يتأثر بموجات «الودة» وتياراتها فهو لا يبغي عنه حولا ولا يريد به بديلا . ثم فضلا عن هذا كله فإن ما نراه من تغلغل العاطفة الدينية في شخصه تغلغلا لم تزلزله كثرة قراءاته لأفكار الغربيين والتي لولاها لما أخرج لنا كتابه عن الفلسفة القرآنية وسلسلة العبقريات والديمقراطيات في الإسلام ... أقول إن ما نراه من تغلغل العاطفة الدينية فيه إلى هذا الحد لينهض دليلا كافيا على أنه ما زال متأثرا بملابسات بيئته الأولى . وإذا كان ذلك كذلك وكان الأستاذ العقاد ما زال متأثرا بملابسات بيئته الأولى ، فلا عجب أن تظل على لسانه بعض الكلمات التي تتميز بها اللهجة الصعيدية ، ولا غرو أن يمتد هذا إلى لغة الكتابة . ومن ثم فإن كلمة فلانة « مليحة » التي رددها مرارا على الأخص في قصة سارة هي لازمة لها مغزاها ، ولا يمكن أن تمر على القارئ دون أن تثير انتباهه وتدعوه إلى الالتفات

بعد هذا يصادفنا المرحوم الاستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى فلقد كانت له — رحمه الله — لازمة هى أصدق ما تكون وصفا له ولفلسفته ، ألا وهى كلمة بسيط ومشتقاتها ، فيقول « هذا أمر بسيط » و « أمور بسيطة » « والرد عليه غاية فى البساطة » وعلى الرغم من أن هذه الكلمة لا تؤدى المعنى المراد لغويا وإنما هى ترجمة غير دقيقة لكلمة simple فقد لاقت هوى فى نفس كاتبنا ، وربما كان هذا لأن الأستاذ المازنى كان رجلا بسيطا فى نفسه بعيدا عن التعقيد الذى انطوت عليه نفوس أهل زماننا ، وربما كان هذا أيضا لأن الأستاذ المازنى كان ينظر إلى الحياة ببساطة منقطعة النظير . أذكر له مقالا كتبه فى أخبار اليوم جاء فيه ما معناه : إن الصحافة ليست هى باب رزقه الوحيد فإنه فى مقدوره أن ينقطع عنها غير نادم ويعتزلها غير آسف فإنه يملك سيارة يستطيع فى يوم وليلة أن تصير « تكسى » كما أنه يستطيع أن يفتتح حانوتا للمرطبات وهو ضمين بأنه سيكسب من الكوكا كولا وحدها قدر ما يقتضيه من صاحبة الجلالة الصحافة . إن فكرة هذا المقال تدلنا على أنه كان ينظر إلى الدنيا على أنها يسر فى أحرج مواقفها ، وأشد أزماتها . وكذلك كان رحمه الله بسيطا فى حياته الفكرية ، فأبغض شئ عنده هو قراءة الفلسفة كما صرح بهذا فى كتابه قبض الريح ، وقال ما معناه إنه لا يفهمها ولا يهضمها ولا يرى طائلا ما تحتها . ثم لقد كان أسلوبه نموذجا للسهل الممتنع ، كنت أقرأ له فيهيأ لى لأول وهلة أنى بصدد كلام دارج ، ولكنى لا ألبث إلا أن أرجع عن ظنى وأقول فى نفسى ويحك يا فلان لقد ظلمت الرجل . . . والواقع ما ظلمت إلا نفسى ...

إن المازنى كان بسيطا ، فى جميع وجوه حياته ، ولقد كانت هذه اللازمة هى أصدق ما تكون وصفا له ولفلسفته ، رحمه الله لقد كان عظيما فى بساطته

يقابلنا بعد هذا كاتب له طابعه الفكرى الخاص هو الأستاذ سلامة موسى وثقافة كاتبنا تكاد تكون غربية بحتة ، وهو يرى أن مهمته الكتابية تنصب على صبغ الفكر الشرقى بالروح الغربية ، وهو كثير التنبيه إلى هذا ! ولذا كانت عبارته المأثورة التى يلتزمها وهى « مما هو دو مغزى » خير ما تعبر عن التنبيه إلى نياته وما استقرت عليه أفكاره . إن الأستاذ صاحب رسالة يرنو إلى تحقيقها ، إنه يرى وجوب هجر التراث العربى والأخذ بتلابيب الثقافة الأوربية وحدها . هذا هو مغزى كل كتاباته على اختلافها ؛ وهو يريد من القراء الالتفات إلى هذا المغزى.. فلا مناص إذن من التنبيه بعبارته التقليدية كلما اقتضت الحاجة ذلك

هذه لوازم بعض كتابنا الكبار ، ولقد شاهدنا مما سبق كيف أن هذه اللوازم لم يكن وجودها اتفاقا وصدفة ، بل هى ترجع إلى أساس مكين فى نفوس أصحابها ... حقا إن الأسلوب هو الشخصية ... أو قل إن اللوازم من الشخصية

محمد فرحات عمر